تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع لما سبق)

١١ الديانة الفينيقية في لبنان

قد اشرنا في الفصول السابقة الى دين اهل لبنان ومناسكهم وهياكل آلهتهم المشيدة في مشارف الجبل كدير القلعة وعينة والمشنقة . وعدّدنا اسماء آلهتهم كالبعل وعشتاروت وتمّوز . الّا اننا احببنا ان نفرد هنا فصلًا خصوصيًّا لهذا البحث الهامّ ونلخّص كلّ ما ثبت لدى العلماء من هذا القبيل فانّ هذا النظر العامّ من شأنهِ ان يوضح كثيرًا من احوال لبنان ويكشف ما استغلق فهمهُ من امور اهلهِ الاقدمين

وقد شاء الله ان يكون الفينيقيّون قومًا وسطًا بين الشعوب الشرقيّة القديمة والامم الغربيّة التي خلفتها . ولا تخرج ديانتهم عن هذا الحكم بل تراها بعد الفحص المدقّق انّها تُشبهُ في كثير من امورها ديانة مصر وآشور وانّ آلهة الفينيقيّين هي آلهة ممالك النيل والفرات استعاروها منهم بعدئذٍ اليونان فكساها شعراؤهم بضروب من المحسّنات الخياليّة وزوّقوها بمسحة من الرونق والجلال

ومن خواصّ ديانة الفينيقيين انّهم كانوا يتعبّدون لاوثانهم دون ان يُجهدوا فكرهم في تنظيم آلهتهم وبيان العلاقات التي تربط آلهًا بآخر كما ترى في ديانة الاشوريين واصنام اليونان فانّ بين آلهة هؤلاء الشعوب بعض النظام بحيث يتسلسل صغيرهم من كبيرهم وينتمي بعضهم الى بعض بخلاف آلهة الفينيقيّين فانّ في معبوداتهم تشويشًا ما ولعلّ هذا الاختلاط ينجم عن حالة اهل فينيقية السياسيّة واستقلال مدنهم . وربّما وجدتَ المعبود الواحد متّصفًا في مدينة بصفاتٍ لم يُعرف بها في مدينة أخرى قريبة منها

وما لا مشاحّة فيه انّ عبادة البعل كانت تعمّ كلّ انحاء فينيقية . ومعنى اسمهِ في اللغات الساميّة الربّ والسيّد وان ذلك الّا صفة عامّة لجميع آلهة الفينيقيّة كانوا ينعتون بها معبوداتهم الخاصّة في كلّ مدينة فيقولون « بَعل صيدون وبعل بريث وبعل طرسوس و بعل لبنان وبعل حرمون » وعلمٌ جزًا . واسم الجمع بَعليم وردت غير مرّة في

اسفار العهد القديم. غير انَّ مدلول هذه المسميات في الغالب الهٌ واحد كانوا يخصّونهُ في كلّ مدينة بعبادة محليَّة تبيّن بعض صفاتهِ. ثمَّ خدع القوم بهذه الصفات الخاصَّة فجعلوها آلهةً ثانويَّة قائمة بذاتها دعوها البعليم وكلُّها منبثق من الاله الاعظم الاصلي تشترك بقسم من كمالاتهِ وقواهُ. وامسى الاله الواحد منقسماً الى آلهةٍ متعدّدة

الَّا انَّ تقسيم الذات الالهيَّة كثيرًا ما كان يتبع تخطيط البلدان فيبني مثلًا اهلُ مدينةٍ هيكلًا للاله العظيم فلا يلبثون ان يعتبروا ذلك المقام كمسكن لبعض قوى الاله ثم يتَّخذونهُ كمبودٍ مستقلّ. وعلى هذه الصورة تعدَّدت البعليم في صور وصيداء ولبنان وحرمون وصارت لاحقةً بالمبدإ الاوَّل والبعل الاعظم

امَّا اذا استقصينا البحث عن هذا البعل الاوَّل المذكور فيظهر جليًّا انَّ المعنيَّ به انَّما هي الطبيعة الهيولَّية بكلّ قواها تُبدع وتفني. وتخلق وتلاشي. وتحيي وتُميت. وكانوا يعرّفون هذا الاله باسماء مخصوصة في كلّ حالةٍ من حالاتهِ فأدَّت بهم اسماؤهُ الى ان اعتبروهُ كآلهة شتَّى

وكانوا اذا حسبوهُ كعلَّة الموجودات ومُولد الكائنات يدعونهُ بعل تمُّز او ادون ومنهُ اشتقَّ اليونان اسم ادونيس (١ (Adonis). ومن المحتمل ان يكون ادون هذا هو المعروف ايضًا باسم بعل لبنان. امَّا تكنيتهُ ببعل سمانيم او بعل السماوات فكان يراد بهِ اله النور وجرم الشمس. وكان لكل البعليم علاقة مع بعض النجوم السيَّارة الَّا ان الاله « تمُّز ادونيس » معبود مدينة جبيل كانت علاقتهُ مع الاجرام الفلكيَّة اعظم من غيرهِ. وكان الفينيقيُّون في زمن الدولة اليونانيَّة يزعمون انَّ ادونيس المشار اليهِ انَّما كان شابًّا يتصيَّد في الشام وانَّهُ كان ابنًا لعشتروت ففي بعض الايَّام اذ خرج سائحًا الى جبال لبنان ليتصيَّد في غاباتها المشرفة على جُبيل اذ وثب عليهِ خنزير برّي فقتلهُ

الَّا ان هذه الخرافة على زعمهم كانت رمزًا عن الشمس وتقلُّباتها من حالة النور الى الظلام في بعض فصول السنة. فكانوا اذا قدم الخريف يحتفلون باعياد يدعونها جنازة ادونيس (Adonies) ففي تلك الايام كنت ترى نساءهم يلبسنَ الحداد ويذهبنَ الى نهر ابراهيم المخصَّص لذكر ادونيس فيجلسنَ على ضفَّتيهِ باكيات معولات يرثينَ موت

١) ولدلَّ هذه الصيغة هي صيغة المنادى بدلاً من « ادوني » اي سيّدي. وكانوا اذا ابتهلوا شفاعة البعل يدعونهُ بهذا الاسم

الاله ومحاسن الطبيعة التي يعبّر عنها (١. وكان البعض منهنّ يُسبغنَ ذيولهنّ ويسدلنَ شعورهنّ ويسرنَ في شوارع جُبيل منبَّرات شُعثًا يلطمنَ وجوههنّ ويولولن على تمّوز ويغنّين الاغاني الشجيّة المبكية

امّا اذا انتهى فصل الشتاء وزهت الدنيا بقدوم الربيع وانقشاع الغيوم عن الشمس فكانوا يقيمون لذلك مواسم تنبئ بفرط سرورهم وعظم افراحهم

ومن تعبدهم للاجرام الفلكيّة المنيرة نتجت عبادتهم للنار وكان الفينيقيّون يعظمونها كاحدى اركان الطبيعة ويقدّمون لها الذبائح فيحرقونها وربّما اتّخذوا لمحرقاتهم اطفالًا صغارًا لا يرثون لحالهم

وممّا يشعر بتعبّدهم للافلاك عبادتهم للبعل حامون اي المحرق وكان اسمهُ شائعًا عند القرطجنّيين وللبعل رصف (Reseph) وهو اله الصاعقة ونار السماء. وكذا كان اهل صور يعبدون بعل ملكرت الهم الاعظم على صورة حجر منيرة. ومن ذلك ايضًا تعبّدهم للرجوم او الحجارة الواقعة من السماء

وزد على ما سبق انّ عبادة الحجارة كانت من خواصّ دين الفينيقيّين فكانوا يقيمون انصابًا ينحتونها ويدعونها بيت ايل (٢ اي بيت الله يزعمون انّ الذات الالهيّة تحلّ فيها وتسكنها. واكثر ما كانوا يختارون لعبادتهم حجارة الرجوم لاسيما تلك التي رأوها ساقطة من الهواء على شكل شهب ناريّة فيعدّونها لذلك هبةً سماويّة. ولمّا كانت هذه الرجوم مركّبة من موادّ بركانيّة ذات لون اسود وتوفّر عددها في لبنان فلذلك شاعت عبادتها في الخافقين. وممّا كان يزيد في اعتبارها عند القوم ان يروها على شكل مخروط لما يجدون في هذا الشكل من الرموز الدينيّة كما اثبتنا ذلك في بعض فصولنا السابقة.(١

وكان البعل او الطبيعة الاله معتبرًا عند الفينيقيين كذي مبدأين ممتازين احدهما مبدأ الخليقة الفاعل والآخر مبدأها المفعول. ومن المبدإ المفعول نتجت الإلهات الإناث وليست الأنثى عندهم سوى إعلان لقوّة الاله الذكر تظهر خواصّهُ وتقابلهُ. وكما انّ

---

١) راجع آية حزقيال التي وما ذكرناهُ في الفصلين السابقين عن نقوش غبلة والمشنقة (ص ٥٩٨ و ٥٩٩)

٢) ومنها اشتقّ اليونان لفظهم βαιτύλιον. راجع قاموس التوراة لفنورد

١) راجع المشرق (٢: ١٢٧)

البعل كان الاله العظيم كذلك كانت عشتاروت الإلهة الكبرى وهي تنقسم اقساماً عديدة على مثال البعل فترى لكلّ بعلٍ خاصّ يُعبد في بعض المدن بعلةً من جنسه. وحيثما كان البعل ممثلاً للشمس كانت البعلة تمثل القمر. ولبعل السماء إلهةٌ توازيه يدعونها ملكة هالسمائم. ومن الازواج المذكورة في الكتابات الفينيقيّة بَعل صيدون وعشتاروت في صيداء وتمّوز وبَعلة جَبل (٢ في جُبَيل. وكثيرًا ما يُطلق على بَعلة جبل اسم البعلة بلا اضافة وكان هيكلها من اشهر الهياكل تحجّ اليه الزوّار من كلّ صوب

وكانت عشتاروت والبعل ومَلكرت كصنف من التثليث الالهيّ في صور. وكان لهذا الثالوث مرتبة عليا بين الآلهة يذعن لهُ كل معبودات ثانويّة. واتّخذت لها صيدون ثالوثًا آخر يتركّب من عشتاروت والبعل واشمون. امّا الجبليّون فكان ثالوثهم ايل وتمّوز وبعلة. وبعلة هذه هي التي يدعوها المؤرخون في زمن الدولتين اليونانيّة والرومانيّة زُهرة لبنان اشتهرت عبادتها في أفقة كما سيأتي (انظر شكلها في الصفحة ٧٠٥)

وكان للفينيقيين ما خلا هذه الاصنام آلهةٌ أُخرى من الطبقة الثانية وردت اسماؤهم في الخطوط القديمة

وخلاصة الكلام انّ دين الفينيقيين كان مرجعهُ الى تأليه قوى الطبيعة وتعزيزها. امّا مناسكهم الدينيّة الظاهرة فتغلّبت عليها الفظائع والارجاس حتى انّهم كانوا يعدّون اعمال العهارة والفجور كافعال تعبّديّة يتقرّبون بها الى آلهتهم النجسة ولم يأنف كهنتهم من المجاهرة بالفُحش فانهم كانوا يتّخذون لكلّ هيكل نساء من المومسات يدعونهن عالمات (عوالم) او قُدسات يعرضون بينّ لكلّ ضروب الآثام

ومن قبائحهم انّ كهنة البعل وعشتاروت في بعض المواقف كانوا يتخنّثون فيلبسون لباس النساء ويطلون وجوههم بالغُمرة ويمرّون اعضادَهم ويسيرون في المدينة جموعًا فمنهم من يشهر السيف والفأس ومنهم من يضرب الصنوج والطبول ويزمّر بالزمّارة وكلهم يولولون ويرقصون كرقص الدراويش في ايّامنا فتارةً يخلقون بين ارجلهم وتارةً يخنون صدورهم وحينًا يقفزون قفزًا وطورًا يزحفون على الحضيض وهم يسحبون

٢) وبلة جبل هذه ذُكرَ في مراسلات تلّ العمارنة المكتشفة حديثًا التي يرتقي عهدها الى القرن الخامس عشر قبل المسيح

تمثال الزُّهَرة المعبودة في لبنان

على الارض شعورهم المتشعّثة المترسلة. ثم كانوا يعمدون الى المدى والسكاكين والحراب والسيوف فيخدّشون وجوههم ويشرّحون ابدانهم ويقطعون قطعاً من لحومهم ويطعنون بطونهم فاذا سالت دماؤهم واصطبغت اجسامهم قدّموا ذلك ضحيّة لطواغيتهم. وقد ورد في سفر الملوك الثالث (الفصل ١٨ الآيات ١٦ — ٣٠) ذكر كثير من هذه الامور وفيه وصف ضحيّة كهنة البعل على جبل الكرمل على عهد الياس النبيّ الحيّ

ومن فظائعهم التي ألمعنا الى ذكرها في معرض كلامنا عن دير القلعة التقادم البشريّة التي كانوا يضحّونها لاصنامهم وكانت هذه الضحايا احسن موقعاً عند آلهتهم يأنسون اليها ويتنسّمون منها رائحة الرضى. وكانوا يؤثرون لهذه المذابح العظيمة الاولاد الابكار

لاسيما الاطفال الصغار بعد ولادتهم يزعمون انّ هذه البواكير تستجلب بركات الآلهة على اصحابها

تلك كانت اعمال الدين الباطل التي لم تزل ساندة معزّزةً رغمًا عن اقوال الانبياء وغيرة اولياء الله في العهد القديم حتى ظهر ابن الله وضاءت انوار النصرانيّة في العالم فاقشعت هذه الظلمات المدلهمّة وخذلت عبادة الاصنام واخربت هياكل الشرك على يد ملوكها المعظمين كقسطنطين وثاودوسيوس (ستأتي البقيّة)

الحرب ومؤتمر السلم

للشاب الاديب عبد الله افندي رزق الله تاجر احد مأموري مبنّة ولاية بيروت الجليلة

يُحسم النزاع بين الدول إمّا صلحًا وإمّا حربًا سواء كان دافعًا لمغرم او جارًا لمغنم. فان تعجز الاقلام عن فصل الخلاف يقطعهُ الصارم البتّار. وان تصمّ الآذان قصدًا عن استماع الحقيقة يخرقها طنين بوق القتال وقرقعة السلاح

والحرب ليست بجديدة في العالم. فهي منذ خلق البشر ضاربةٌ اطنابها بين ظهرانيهم كما يشهد لنا بذلك تاريخ الاعصر الخالية. قد اورت زنادها في كلّ اين وآن واسعرت نيرانها مطامعُ الانسان الكثيرة وامياله المتباينة واحقادهُ المكنونة

١

الحرب في زماننا ثلاثة انواع: اوّلها الحرب العاديّة المعروفة والحظُّ فيها لمن اكثر العَدد والعُدد. وأتقن فنون الحرب وآدابها. ونظّم الجنود ودرّبها. وأحسن اسلحتها وادواتها. واذخر ارزاقها ولوازمها

لكنّ هذه الحرب زادت مع ترقي المدنيّة هولًا وفتكًا فقلّت شباة المتحاربين وقلّت اظفارهم

تقاتل الاوّلون بالاسلحة البسيطة وتنافح احفادهم بالابيض والاسمر. واماّ معاصرونا فاشهروا الاسلحة الجهنّميّة. واطلقوا القنابل الناريّة فلم يُبقوا ولم يذروا. سمعنا صليل اسلحة الصين واليابان. ودهشنا من دويّ مدافع الاميركان والانسان. على انّ حربًا عبوسًا بين الفرنسيس والانكليز مثلًا تكون والعياذ بالله آيةً من آيات الساعة يشيب

(١) وردتنا هذه المقالة منذ شهرين فتأخّر نشرها لكثرة المواد